شاعر حكم عليه بالاخلاص

بقلم أسعد خير الله

خليل حاوي عند « البصـــارة »

الاخلاص ، بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، ميـزة تقصر عنها النفوس الضعيفه . فهي نادرة في التاريخ ، لانها تفترض مواجهة الحقيقة العارية ، والحقيـقة في عريهـا قاسية لا ترحم .

والاخلاص ، في نظري ، شرط اساسي للعبقرية الفنية ، مع ان القاعدة لا تعكس . فكم من مخلص لـم يعبأ الا بالحياة ، دون ان يغريه التعبير ، او دون ان يقدر على الخلق .

وقد رأينا الفلسفة الوجودية الحديثة تقـوم عـلى الاخلاص كموقف من واقع الحياة ، وكقيمة اخلاقية اولى. ولكن ان توجد لا يعني حتماً ان تخلق ، اي ان تعبر عـن وجودك عن طريق العطاء الفني .

لكننا هنا بصدد شاعر اصبح الخلق تكملة حتمية لحياته ، فوجوده ترويض للعبارة بقدر ما هـو تـرويض للواقع . وهو موجود متى وعى كونه ، وساد عليه باراده مسؤولة ، فاخلص في معرفه مايريد وفي تحقيقه ، وفـي التعبير عنه . فالعبارة بالنسبة له كالحركة بالنسبة للجسم الحي . وكما تاتي الحركة دليلا على الحياة هكذا تكـون العبارة عنده دليلا على وجوده .

وقد تكون العباره احيانا كانتفاضة الشمعة قبـل الانطفاء او كحركة المستميت قبل الغرق النهائي . وقـد تكون الحركة عملية استفزاز للهمة . وبعث للحياة ، علـى سبيل الايحاء الخارجي ، دافعها غريزة البقاء . كما تكـون العبارة عملية توضيح وتركيز ووسيلة أخيرة نجمع بهـا ما توزع من نفوسنا ، فنعيه من جديد ونسيطر عليه .

والاخلاص يتوجه اولا نحو الذات فيحاول معرفتها، المعرفة التي تبعث في الانسان ثقة عظيمة . فيحقق ارادته بحرية وانسجام مع نفسه ، ويعبر ـ اذا كان فنانا ـ عـن تلك الذروة من وجوده بنشوة واكتفاء .

وفي انطلاق الذات المخلصة نحو التحقيق . قد تخيب اذا اصطدمت بذوات مريدة مضادة . الا انها تثور وتقرف عندما تلتقي بمن قنعت وجوههم ، وخفيت دوافعهم حتى عـن انفسهم .

لذلك يمكننا القول : بان المشكلة التي يجابهها خليل حاوي والتي تمزق ذاته وتبعثر وعيه وارادته . وتلقـي في عالمه صمتا رهيبا يهدده بالانعدام ، هي مشكلة وجودية صميمية تنبع من اعماق الفرد ـ الحضارة الـذي يريـد الشاعر ان يكونه ، والذي يكافح للوصول اليه . اذ انـه حصيلة شخصية متكاملة « فردية ـ حضارية ـ فنية » . يوجد الشاعر بها اذ يوجدها .

اما ظهور التداعي في احدى هذه الروايا من مثلث ذاته ، فما هو الا دليل على ان الخلل واقع في الاجـزاء جميعها ، وعلى ان الوحدة الداخلية الضرورية لكل وجود حي نخرها سوس الانحلال .

وكان الصمت نذيرا مرعبا للشاعر القابض على عنان نفسه ، المنتمي الى حضارة يعتبرها اما ومرضعه ، لذلك لم يكن مستبعدا ان يستفيق مذعورا ليرى ان جدران بيته قد تهدمت في اعماقه ، وان حاضره تركه مشوش العينين ، اما غده فنكره .. وهكذا يدفعه اخلاصه مع ذاته الى استثارة حدس البصارة في ضميره ، فراح يعيد النظر في تركيب الشخصية التي يتوخاها لنفسه علّه يعرف موضع الخلل .

طالما طوف في المجهول ، فابحر الى ضفاف « الكنج» ورافق المجوس الى اوروبا ، الا ان منارات الطريق ماتـت في عينيه ، ولم يعد سوى « مضغة تافهة في جوف حوت»

وشارف على الموت ، الا ان ضحكات الصغار ايقظته، فانتفض مكافحا ، ناذرا حياته في سبيل قضية تعطـي وجوده معنى : انهم اطفال اترابه ، يستحقون الحيـاة ، يستحقون ان يفرش لهم خليل ضلوعه جسرا يعبـرون فوقه الى حياة النسور . وفي ذروة حماسته ايقظ خليل اله الخصب وحمله على ان يبارك النسل العتيد .. ثـم راح يتغنى بهم ـ يصلي لهم ، وكانه يضرع لهم ان يكونوا حقيقة لا وهما . ثم انتشى ، ولم يعد يصبر ، فصاح :

« ردني ربي الى ارضي اعدني للحياة »

الا ان ارضه تفجعه ، فهناك يرى ان العصر لم يزل عصر سدوم وان اطفال احلامه لا مكان لهم بين قومه .. فيروح يضرع الى ربه ويستمطر المعجزات ليحل الخصب من جديد .

وبينما هو على تفاؤل تنعق البوم في اعماقه اغنيـة حزينة تذكره بلا جدوى تضحياته ، ولكنه يسرع في اسكاتها متكلا على جمر وخمر تزودهما من حب الصغار . مستعدا للقاء الثلج ، صامدا بايمان من يردد .

« لـن يتخلى الصبح عنا اخـر النهـار »

غير ان الاخلاص ليس نعامة ، بل هو نسر يحدق في شمس الواقع . الاخلاص حمامة يقين تحمل لنا اغصان الزيتون حينا ، وغراب شك يذهب بامالنا او يعذب سمعنا احيانا :

« سوف يمضون وتبقى فارغ الكفين ملصوباً وحيد »
« اخرسي يا بومـة التاريـخ .. »
« سوف يمضون وتبقى ، فارغ الكفين .. »
« اخرسي .. »
« سوف يمضون »

ويدفعه الحوار الى سؤال لا بد منه :

« الـى أيـن ؟ »

وينظر الشاعر في اعماقه فيرى لججا تتصطخب في العتمة ثم يلتفت حوله فاذا بمنارات الطريق تموت مـن جديد ، واذا بالحوت يسرع نحوه ليعيده الى جوفه ..

عندما لا نؤمن الا بالانسان ، ويكون هذا الانسان عبارة عن وجود حضارة يرتضيها فرد خلاق ، يصبح الصمت ، دليلا على ان الوجود الفردي ـ الحضاري مهدد.

وصوت الشاعر هنا صوت رسول حمل الاخلاص والبعث الى حضارته كي ينهض بها ، فيتم وجوده ويحقق ذاته .

الا ان الصمت يرعب والبومة تنعق ، والحوت يفغر فاه .. مما يضطر الشاعر لان يعيد النظر في انتمامه الحضاري ... اذ ان انهيار حضارته في ذاته باعث على انهياره الفردي والفني ..

فكأني به في عرض بحرنا المتوسط ، ينظر الى منارتين شاحبتين ، فيحتار الى ايهما يتجه ، وهو مجبر على الاختيار لئلا يبقى فريسة لحوت التفاهة والعبث والعدمية .

يغوص في ذاته حيث الغموض يلف كل شيء ويستعرض الطرق الممكنة .. فاذا بالبومه ترجع لتصرح في اذنيه بصوت جن ساخر : « امامك حلان ، فاما ان تصبح ناسكا على ضفاف حضارة أخرى ، حيث يغلفك الصمت ، ويمتنع عليك الحلم بموسم الخمر والجمر ، الموسم الذي طالما تجديتني به ..

« او ان تتجه في تيار حضارتك نحو مقاهي الشط والخليج حيث الملل والتمويه . وحيث تصبح واحدا من المسمّمين المسمّمين ، تتقي بجلدك المتمسح سهام التزوير والخداع ، وفي اخر انتفاضة لك على المراوغة ترتحي يداك.

وتستمر البوم في نعيقها ، فتشرح للشاعر ان حله الاول يعني كبت ذاته عن التحقيق ، الامر الذي يدفعه حتما الى الاستعاضة عن رسالته السابقة بخلق عوالم جديدة ، يكون فيها ملكا ورسولا بل الها .. الا ان هذه العوالم تبقى في ضميره وحده ..

اما حله الثاني فيقوده الى مصير حزين ينقلب فيه ساحرا مهرجا بين السحرة والمهرجين من ابناء سدوم .

تسكت البوم لتنصت لثورة الشاعر الممزوجة بنوع من الاسترحام ـ وكان خليلا يشعر بان هذه الجن قد يكون على حق ـ فيلفت نظره الى الصوت الخلاق الذي سيملأ الدنى ، الى الحياة العائدة مع دمه الذي يحيل العفن ثريات من العافية ، الى عروق الرب المنتشية وصوته الجديد .. وتجيء ردة الفعل من قبل الجن ، فيجيب الشاعر بصلابة ووحشية منكرا :

ـ « لست أرى »

وكأن الشمعة حكم عليها بالانطفاء فاذا بها تنتفض . واذا بالمنارة المخلصة تلمع ثانية ، فتنقشع العتمة وتخرس اصداء البوم ، لنرى البحار يضحك من بصارته متجها مرة ثانية الى الشاطيء الوحيد ، في يديه زفت وكبريت يحرق بهما نسل العبيد ، وعلى شفته بشارة ، بعد ان روض العبارة ووعى ذاته واستبشر بحضارة من نسل الالهة ، فاستعاد وجوده ..

اما اذا سألتني عن مدى قوة هذه الضحكة ، واذا ما كانت سوى ضحكة ايحاء وتمن ، فاني أجيبك بان البوم ـ بحكم الاخلاص المرهق ـ ستنعق من جديد .. الاانه يبدو لي ان هذه الضحكة هي الحل الوحيد .

(الجامعة الاميركية)ـ بيروت

اسعد خير الله

الشبح

دمشق في ٩٦١/٧/٥

كرصاصة بلهاء ، كالقدر الضرير
كان القطار وراء سكته يسير
وانا اسير ..
لا درب لي ، لا سقف يفرش ظله حولي ، وكابوس الهجير
رقطاء تبلعني ، تمزقني ، وتنفثني على سام الرصيف
كرماد منفضة الخريف
من أين ..؟ لا ادري ، ولا أين المصير !
طفل بدون اسم ، بلا حس ، بلا وجه يسير
شبح يطوف لاهث الخطوات ، مختنق الضمير
ويهز صوت الريف أعماقي .. فاشعر بالحياه
فجرية الانداء ، خضراء الملامح ، بالنعيم متوجه
من داخلي تنداح كالعطر المحبا في عروق بنفسجه
لكنها سرعان ما تخبو على السطح الموات
كفقاعة صفراء من زبد النوارع في الهجير
وانا كمن في نومه .. يهذي ، يحدق ، او يسير
اتصفح الالاف من هذا الجراد المستطير
لا عين ترمقني بحقد او حنان
لا كف توقظني ، تمد لي التحية ، لا لسان
لا ثغر يبسم من صميم القلب لي
وان ابتسم ...
فلما تصوره بجيبي من نعم !

*

ويصيح بي ، من سجنه الفخري ، تمساح بليد
« ماذا تريد ؟ »
ـ : « انا ؟.. ما انا حتى اريد ؟!
يا سيدي .. لا شيء ، لا ادري افتش عن صديق
حي ، وأين الحي ؟ ابحث عن طريق
عن منفذ لافر من هذا الحريق . »

*

واظل كالشبح المخدر عبر دنيا من قبور
ويظل في رأسي صرير
ذاك القطار وراء سكته يسير
كرصاصة بلهاء ، كالقدر الضرير ..

حمص

علي كنعان